الإبداع الفني من استلهام الطبيعة إلى خيال الفنان

Artistic creation from the inspiration of nature to the imagination of the artist

د/بوزار حبيبة *

تاريخ الإرسال: 2021/03/01	تاريخ القبول: 06 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 / 2021

الملخص:

الهدف من الدراسة هو البحث حول طبيعة جمال العمل الفني، هل هو جمال طبيعي أم فني ؟. وذالك من خلال التعرف على العلاقة بين الفن والطبيعة ورصد أراء المدارس وعلماء الاستطيقا واختلافهم حول تحديد طبيعة الظاهرة الجمالية، فمنهم من اتجه نحو مثالية لظاهرة ومنهم من ساير الواقعية، وعلى هذا النحو نشأت مشكلة الاختلاف بين العلماء، وسوف نحاول تتبع هذه المشكلة منذ بداية الإنسان في النظر حوله من الطبيعة محاول تحديد مفهوم الجمال في الخارج كامن في الطبيعة وبالتالي هي منبع إلهام الفنان أم أنه شعورا نظهره أثناء النظر للطبيعة وما نعنيه هنا نظرة الفنان وترجمته للطبيعة التي تتأثر بنوع الشخص الذي ينظر.

الكلمات المفتاحية: الإبداع الفني ، إلهام الطبيعة، الفن، الخيال، الفنان.

Abstract:

The purpose of the study is to research the nature of the beauty of the artwork. By learning about the relationship between art and nature and by monitoring the views of schools and scientists, and their differences about the nature of the aesthetic phenomenon, they are those who have gone towards the ideal of a phenomenon and who are those who are practical, and as such the problem of difference between scientists has arisen, and we will

المؤلف المرسل: بوزار حبيبة bouzar2010@ymail.com

bouzar2010@ymail.com جامعة تلمسان *

try to trace this problem from the very beginning of man looking at it from nature, trying to define the concept of beauty abroad as being safe in nature, and therefore the source of the artist's inspiration.
Keywords: artistic creation, inspiration of nature, art, imagination, artist.

*** *** ***

1. مقدمة:

لقد إرتبط الفن بالطبيعة منذ الأزل، فعمل الفنان لا يعدو أن يكون تجميعا للعناصر وخامات يجدها في الطبيعة، والله هو الخالق وليس الإنسان، فالكميائي لا يخلق خامة جديدة بل يجمع بين العناصر لإيجاد تكوين كميائي جديد، ومن الغرور أن ينسب الفنان إلي نفسه الخلق الفني للتعبير عن عمل لا يكون إلا تجميعا وفقا لتنظيم أو ترتيب معين رآه أو موجود في اللاشعور وفقا لنمط أو منهج يكون معبرا عن أحاسيسه وميوله، فالفنون لا تخلق بل تشكل ، فالفن قد يكون محاكاة للطبيعة أو باستعمال مواد من الطبيعة، فهو نشاط إبداعي يقوم به البشر بعكس الطبيعة ، فالإنسان في حد ذاته ظاهرة من طبيعة لكن قيمة الإبداع الإنساني باختلاف مشاربهم تبقى تجربة جمالية مميزة مترفعة عن الإنسان العادي.

فالنظرة الجمالية إلى الطبيعة، هي نظرة الفن والفنانين، مضمونها البحث في نظام الطبيعة وكشفه للجمهور، الذي بدوره التفاعل معه، فترتقي الروح وتعمق في إدراك الطبيعة.

لكن هناك خطوط تقاطع بينهما وهذا ما يجعلنا طرح الإشكالية التالية، ما العلاقة بين الفن والطبيعة؟ ونحن نعلم أن الطبيعة منبع الإلهام الفني، هل هذا يعني التماثل بين العمل الفني والطبيعة؟

وبالتالي هل نحن نتذوق أعمالا فنية أم نتذوق الطبيعة؟ وإذا كان الأمر هذا أو ذلك فأي من هذين النوعين يكون أفضل أو أعظم قيمة: هل التذوق الفني أم تذوق الطبيعة؟

سنحاول من خلال هذا البحث عرض الموقف الذي يستند الطبيعة كاستلهام للفن من خلال تاريخ الفن البدائي والأساليب الفنية الحديثة وإظهار مصدر التكوين والعناصر في الفنون التشكيلة وأسرارها الموجودة في الطبيعة وعرض الموقف الثاني حول خيال الفنان والتي تستند لخطأ الفنان حول المحاكاة وسبب تنوع الأساليب من واقعي و تعبيري وتجريدي ورومانسي.

وللإلمام بالإشكالية نعتمد المنهج التاريخي في سرد أراء الفلاسفة والمدارس حول طبيعة الجمال واستخدام التحليل والتفسير الحجج المستعملة في التفريق بين الجمال الفني والجمال الطبيعي وتعرف عن مفهوم الإبداع الفني ومصدره وأهميته.

2. تعريف الفن:

1.2 تعريف الفن لغة:

مشتق من الفعل وَظَّفَ جاء في لسان العرب الفنون: الأنواع.[1]، والفن: الضّرب الشيء، والفن: الحال، والجمع هنا أفنان وفنون. والرجل يَفُنُّ الكلام أي يشتق فَنّا بعد فن. ورج مِفَنٌّ: يأتي بالعجائب، أَفْنَنَ الرجل في كلامه وخصوصية إذا توسع،

وأفنن الرجل في خطبته إذا جاء بالأفانين. [2]

فننت الإبل إذا طردتها. والفنون: الأخلاط من الناس.

والفنان في شعر الأعشى الذي أشار إليه هو قوله:

وَإِنْ يَكُ تَقْرِيبٌ مِنْ الشَّدِّ غَالَهَا بِمَيْعِهِ فَنَّانِ الأَجَارِيِّ [3] مُجْذِمِ

وفَنَّنَ فلان رأيه إذا لونه ولم يثبت على رأي واحد. و الأفانين : الأساليب.

وعلى كل فالمادة المشتركة فيما سبق من اشتقاقات تفيد أنّ الفن هو الإتيان بضروب وأنواع من الأفعال والعجائب.

2.2 تعريف الفن اصطلاحا:

أمّا تعريف الفن كما اصطلح عليه رجاله فيقصد به ما يلي:

- العمل الذي يتميز بالصنعة والمهارة.
- أو إنتاج جمالي ينتجه الإنسان الواعي ويضيفه إلى الطبيعة.
- أو تلك النشاطات الإنسانية التي تميل إلى التوجه صوب النزعة الجمالية.

ولاشكّ أنّ تعريف الفن يشير إلى نزعته الإنسانية وطبيعته الاجتماعية برغم اختلاف وجهات النظر في اجتماعية الفن وسيكولوجيته ... هذه النزعة تدل على أنّ الفن وهو نشاط إنساني واعٍ، على عكس أنشطة بعض الحيوانات، مثل تسديس النحل لبيوتها، أو نسيج العنكبوت لبيته، ... إلخ.

ويعرّف الأستاذ محمد قطب الفن بما يلي:

«الفن في أشكاله المختلفة هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسّهم من حقائق الوجود، أو من تصورهم لحقائق الوجود في صورة جميلة مؤثرة» [(4)].

.3. تعريف الطبيعة:

1.3 تعريف الطبيعة لغة:

الطبيعة: السجيّه جُبِلَ عليها الإنسان، جمعها طبائع "الطبائع الأربع" عند قدماء الطبيعيين الحرارة والبرودة والرطوبة واليُبُوسة.

الطبيعيّ: ما يختص بالطبيعة، مَنْ يَنْسِبُ كل شيء إلى الطبيعة، من يمارس علم الطبيعيات، وهو علم يبحث طبائع الأشياء، وما جَعَلَهُ البارئ فيها من الخصائص والقوى.

2.3 تعريف الطبيعة اصطلاحا:

في الفكر العربي، تظهر مفاهيم الطبيعة في المذاهب المتنوعة، وفي الطرق الاستدلالية أو أشكال الممارسات العلمية، وكما كان الاصطلاح العربي للطبيعة والطبع، قد تأثر جزء منه بالنظر والاعتبار الإغريقي القديم للفيزياء، وشابه في ماهيته شيئا ممّا نصادفه في التأملات اللاّتينية عن الطبيعة Natura فقد تشكل هذا الاصطلاح، زيادة على ذلك، واتسع بسبب أبعاد الدين التوحيدي وتوجهات الأصول الاشتقاقية المرتبطة بها. والعبارة المجردة "الطبيعة" التي هي الوحدة المعجمية العربية الفصيحة كمقابل للفظ اللاّتيني Natura والفرنسي والإنجليزي Nature، والألماني Natur إنّما اشتقت من الأصل أو الجذر "طبع"، والحد "طبيعة" في الاستعمال السابق على الاستعمال الفلسفي لم يكن عامًا، وإنّما نصادف الاستعمالات من نحو صيغة الفعل "طبع" والمصدر"طبع" مما يعني فعل: [الختم: Stamping, Sealing] [5] أو نجد دلالة الدمغ والبصم أو الطبع بمعنى الطباعة.

ويقابل لفظ الطبيعة في العربية اللفظ اللاّتيني الذي يشتق من جذر المصدر [ويعني ولد أو نشأ] وما يرتبط بمحامل الوصف من صيغة [الميلاد والنشأ والنمو] إنّما يدل في نهاية الأمر على (ما شأنه أن يتولد من ذاته). [6]

وفضلاً عن ذلك فإنّ التسميتين المعاصرتين وهما في الإنجليزية "Physics" وفي الفرنسية "Physique" إن كانتا قد أخذتا من التعبير الإغريقي: Phusis فكذلك اشتق حد التكوين الجنيني: "fetus" وباللاّتينية (Foetus الإخصاب أو التكوين) من الفعل الإغريقي Phuein ويدل على قوة النمو، وكذلك وبالمثل، فإنّه تبين استعمالاً بالتعبير "الطبيعيات" في العربية الكلاسيكية ممّا يشير إلى قوة الأجسام dunamis الطبيعة المعرضة لزخم الحركة Kenesis.

ومعنى الطبيعة في القرن العشرين كان من البديهي أن يسقط العمل به ويفقد وضعه ولم تنفك أعمال الفنانين والمثقفين الموجودين في الطليعة تعلن عن موتها الوشيك، وفي 1984 كتب فريدريك جيمسون Fredric Jameson وهو منظر بارع لما بعد الحداثة في مقال مشهور له، موضوعه كأحد الشروط الممكنة لذهنية ما بعد الحداثة، وقال: "إنّ ما بعد الحداثة Postmodernisme هو ما نحصل عليه حينما تتم عملية التحديث، وعندما تختفي الطبيعة نهائيا" [(7)] وعلى نحو يؤكد جيمسون على أنّ الطبيعة هي بناء وتكوين ثقافي "إنتاج محض للخطاب" وليست إطلاق رسم دقيق لواقع طوبوغرافي وبيوفيزيائي [(8)].

4 .علاقة الفن بالطبيعة :

لن يستطيع أي فنان مهما بلغت قدرته في التعبير وتملكه لأدواته الفنية أن يتفوق على الطبيعة في أقل عمل فني وليس هذا الأمر بحاجة لتأكيد، فقد يكفي التمعن لمدة دقيقة في تراص حبات الرمل المختلف الألوان وتمازجه مع الصدف البحري والصخور بكافة الألوان والأحجام والاختلاط بأعشاب وحيوانات البحر في أي جزء صغير من قاع البحر ليؤكد أنّ الطبيعة هي أصل الفن.

والطبيعة ليست فقط ملهمة للإنسان كي يصنع جمالا يحاكي ولو ببساطة جمالها لكنها كانت دائما محرضا لأعمال فنّية وصفية، تصف الجمال الموجود فيها، ورغم أنّ طريقة تناول الطبيعة كوصف قد يختلف نسبيا باختلاف الزمان أو المكان، أو قد يختلف بنوع العمل الفني ذاته أو قد يختلف (نسبيا) بسبب الفنانين أنفسهم، إلاّ أنّ النتيجة كانت دائما جمالا إضافيا وفنًّا راقيا.

ويقول معظم المهتمين بالفلسفة أنّ الطبيعة والفنان يتشابهان من ناحية العطاء، فمثلما تعطي الطبيعة جمالا كذلك الفنان، ومثلما نتلقى من الطبيعة ما

يفرحنا أحيانا كأصوات العصافير وما يضحكنا وما يبكينا وما يبعث فينا الدهشة أحيانا كجمال البحر اللاّنهائي، كذلك فإنّ الفنان كثيرا ما يدهشنا ويجعلنا نمتلئ بمشاعر شتى ونحن بمشاعر شتى ونحن ننظر أو نتلقى منجزا فنيا ما.

وهناك فنانين يستخدمون الطبيعة بشكل غير مباشر لإضفاء الجمال على عملهم الفني، وهذا النوع من الاستعانة بجمال موجود أصلا على جمال مبتدع مثلما فعل تشايكوفسكي في موسيقاه بحيرة البجع.

كما يمكننا أن ندرك بسهولة ما يقوم به الرسامين أو النحاتين في أنّ هناك تجانسا بين الفنان وعاطفته والشكل الذي يكونه أو يرسمه وهناك اصطلاحات منها رمزية الشكل فالشكل العمودي تسامٍ روحي والأفقي يدل على الندية والتساوي وقد يدل على الثبات إن كان متوازنا والشكل العشوائي يدل على الاضطراب والدهشة [9].

1.4 الطبيعة المدرسة الأولى للفنان :

إنّ الدراسات المتوفرة حول الفنون البدائية Primitive Art وخاصة في الصحراء الكبرى العربية ولدى بعض القبائل الإفريقية وعند الهنود الحمر ولدى البوشمن في أستراليا لا تلقي الضوء بشكل كاف على الخصائص وسمات الفن البدائي، لقد أنجز الفنان البدائي أعمالاً فنيّة متنوعة، كالرسم على الصخر في الكهوف والتماثيل والأقنعة ... وكذلك الوشم وأشكال النسيج والأدوات المتنوعة. وهذا الفن البدائي قد صنعته أقوام لم تعرف الكتابة حتى بأبسط أشكالها، كما أنّه ليس في الفن البدائي أسلوب واحد، بل هناك العديد من الأساليب تتراوح بين التخطيطات البسيطة وصولا إلى البورترية (القناع والنحت)، وأن نلاحظ أيضا أنّ الفن البدائي استخدم مواد طبيعية متوفرة في مكان إنتاجه، سواء كانت من النباتات أو الحيوانات أو الصخور، وغالبا ما استخدمت بصفاتها الخام وقليلا ما تم تنقيتها أو استخلاصها بشكل صافٍ.

قام منذ ما يقرب من مائة عام باحث إسباني بدراسة أحد الكهوف التي كان يقطنها الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، وقد لاحظ الباحث أنّ جدران الكهوف مغطاة بأشكال حيوانية رسمت أو حفرت أو لونت بمواد طبيعية.[10]

الصورة رقم1

وقد فسرت ذلك بداية، بأن هذه الرسوم تعود إلى وقت غير بعيد عن العصر الراهن إذْ لم يكن يَدُرْ في مخيلة أحد أنّ الإنسان القديم كان قادرا على الرسم والتصوير، إلى أن تم العثور على أمثال تلك الرسوم والصور في العديد من الكهوف القديمة، المنتشرة في مناطق متنوعة في مختلف قارات العالم القديم.

هذا بالإضافة إلى العديد من الرسومات التي تظهر فيها أشكال إنسانية وحيوانية تم حفرها ونحتها من أو على قرون الحيوانات وعظامها، عندئذ لم يتطرق شكٌّ إلى أنّ تلك الرسوم تمثل في الواقع أعمالاً فنّية تنتسب إلى ماضي الإنسان البعيد.

فالاكتشافات الحديثة تؤكد أن الإنسان الأولى في رسومه البدائية على الجدران كانت الطبيعة مصدره الوحيد في الإلهام الفني وكان ينقل من الطبيعة مباشرة ثم تطور فكره وثقافته فأصبح ينقل بتصرف وبتجريد في بعض الأحيان.

2.4 التصميم والطبيعة:

فالتصميم هو تنظيم وتنسيق مجموع العناصر، أو الأجزاء الداخلية في كل متماسك للشيء المنتج، أي التناسق الذي يجمع بين الجانب الجمالي والنفعي في وقت واحد. في الفنون التشكيلية ابتكار أو إبداع أشكال جميلة ممتعة ونافعة كالتصميم في إنتاج بعض الحرف مثل "النسيج- الطباعة- المعادن- النجارة- الخزف- النحت- الأشغال اليدوية والفنية ..." [11].

والغريزة الجمالية هي التي تدفع الفنان المصمم إلى ترتيب أفكاره وأحاسيسه وتنظيمها لإبداع شكل من الأشكال وفق خطة محددة، ومن أهم الأهداف من تعلم التصميم: القدرة على الملاحظة باستخدام كل الحواس المتاحة، القدرة على التخيل وتنظيم وربط المعلومات والأشكال المحيطة واكتشاف العلاقات والقوانين في البيئة المحيطة. [12] يستلهم المصمم رموزه وعناصره في الغالب من الطبيعة وينظم تلك العناصر في ضوء ما تملكه الطبيعة من تنويعات، ويبدأ التصميم عندما تتحول الفوضى إلى نسق ونظام. و من المتوقع أن تكون لدى الفنان حساسية عن الآخرين من حيث إدراك الأشكال وما تتضمنه من معان.

يمر المصمم بعمليتين خلال عملية استلهام الطبيعة وما بها من ثراء:

- الأولى: داخلية متصلة بقدراته الإدراكية بما فيها من ثقافة ومزاج وقدرات فيسيولوجية وبيولوجية.
- الثانية: خارجية تتمثل في العلاقة بالطبيعة، حيث تعتمد عملية التصميم على التنظيم البصري وعلى كيفية رؤية الطبيعة والتنوع فيها. [13].

ومع بداية القرن العشرين بدأت الأبحاث العلمية الحديثة باستخدام عدسات التكبير تكشف عن جوانب متعددة لمفاهيم الطبيعة، تلك الكشوف التي مكنت الإنسان

المعاصر من التعرف على جوانب من الطبيعة كانت مغلقة على الفنان المصمم في الماضي، وكان يصعب عليه أن يدركها أو يتخيلها.

يتكون الشكل العام في أي عمل فني من عناصر متعددة، فالأصوات بأنواعها ونغماتها ودرجات ارتفاعها أو خطواتها وترتيب تتابعها وكيفية تآلفها تمثل جانبا من العناصر المكونة للشكل العام في الموسيقى مثلا، أمّا بالنسبة للفن التشكيلي فالعناصر المكونة للشكل العام فيه عناصر شكلية تشاهد ويمكن تذوقها عن طريق الرؤية، كالنقطة والخطوط والمساحات والكتل والأضواء والظلال وملامس السطوح والألوان والفراغ المحيط بالهيئة، وتعد هذه العناصر بالنسبة للتصميم مفردات لغة الشكل التي يستخدمها الفنان المصمم وسميت بذالك نسبة إلى إمكانياتها المرنة في اتخاذ أي هيئة مرنة وقابليتها للاندماج والتآلف والتوحد مع بعضها البعض لتكون شكلا كليا للعمل الفني، وقد اختلف العلماء والفنانون والنقاد في تحديدها واتّفق البعض الآخر على وجودها كما ذكرت سابقا.

ومهما تكن تلك العناصر فإنّ إدراك الفنان لها إدراكًا جيدا يساعد في عملية التخطيط ويجعل عمله سهلا طيعًا، كما يساعده في تقييم تصميمه وتطويره.[14]

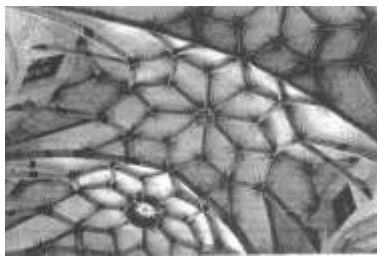

الصورة رقم2 تصميم ملابس الفتاة مستوحاة حيوان الحمار الوحشي

الصورة رقم3 منشأ معماري مستوى من شكل الزهور

كما يقول روكسين: إنّ البشر جميعا متى تم تنظيمهم واعتدال مزاجهم يتمتعون بالألوان، هذه التي تسبب الراحة الدائمة والبهجة الحقّة للقلب البشري، لقد أضيفت بسخاء على أرقى المخلوقات وصارت دليلا رائعا على الكمال. [15]

5. الطبيعة و المحاكاة:

الفن شكل من أشكال التفكير الذي يدعو إلى افتراض يشكل الأشياء والظواهر، بصورة قد تتجاوز المعطي الطبيعي أو تحاكيه، رغم عدم المحاكاة للموجود الطبيعي، موضوع قديم قدم التشكيل، ألا أنّ هذه المحاكاة مهما كانت نسخية، ألا أنّها تقدم شيئا من الافتراض المتغير عن الموجود الطبيعي ذاته، بدرجة من الدرجات قد تكبر أو تصغر حسب قصدية وإرادة الفنان.

1.5 نظرية المحاكاة:

وهذا ما حلله هيغل تحليلا وافيا فخرج بنتيجة تتناسب مع منهجه "الجدلي"، ولا يناقض مثاليته، وهي عُدُّ (العمل الفني) أجمل وأفضل من (الجمال الطبيعي) لأنه يحوي الفكر إلى معطيات الجمال الطبيعي، فرسم الشجرة أجمل من الشجرة ذاتها حسب تعبيره. [16]

ونظرية المحاكاة ليست نظرية جديدة كما يعتقد بعض الناس وإنما قامت أصلا على الفلسفة الإغريقية القديمة عند أفلاطون وأرسطو، والتشكيليون يرون أنّ التجربة الجمالية لا يمكن أن تحدث إلاّ عندما يكون العمل الفني شكليًا، وذلك لأنّ الحدث أو الموضوع الذي يتناوله العمل الفني ليس مجرد شبيه بالنموذج الأصلي الموجود في الحياة الواقعية (والطبيعة)، وأنه ليس ترديدا له، ولا يمكن البتة أن نعتبره مجرد نسخ للحوادث والمدفوعات [17].

2.5 كانط: الفن ينبع عن الفكر لا عن محاكاة الطبيعة

يرى كانط Kant أنّ الفنان العبقري الذي يطرح أفكارا جديدة لا يحاكي الطبيعة وإنما ينبع إبداعه الفني عن فكرة، يقول كانط سواء رسم الفنان الطبيعة بالريشة أو اليراع، شعرا كان أو نثرًا، فهو ليس بعبقري مبدع لأنه يحاكي فقط، إنّ فنان الأفكار وحده هو سيد الفنون الجميلة الحقيقي، وينتج عن ذلك أنّ الإبداع الفني عند كانط يرجع إلى الفكر والعقل بقوانينه وشروطه الأولية. [18]

3.5 جويو: الفكر هو الذي يخلق الفنان المبدع

يقول جان ماري جويو في «مسائل فلسفة الفن المعاصر» أنّ على الفنان أن يصور لنا طبيعة واقعية، صحيح أنّ على الفنان أن يصور أشجارا حقيقية، وحيوانات حية ولكن يجب أن يدرك ذلك كله بعيني إنسان لا بعيني قوة، يجب أن تنطبع هذه الأشياء التي اجتازت دماغه، إن صح التعبير، بطابع فكره الشخصي، ومن هذا الطابع ... إنما تستمد هذه الأشياء قيمتها الكبرى، ويؤكد جويو هذا الطابع في غير ذات مرة فهو يقول «لا يستطيع الإنسان أن يقرض الشعر في غير التعبير عن فكره الشخصي، عن أخص ما في فكره الشخصي»، ويقول في فقرة أخرى «كل ما نرى في الطبيعة من جمال شعري مرده إلى دماغ الإنسان»، ويطبق حديثه هذا على الموسيقى فيقول «ونفس الأمر ينطبق على الموسيقى لأن الموسيقى ما هي إلاّ شعر صوتي». [19]

لقد وهبت لنا الطبيعة، أول الأمر التنفس والحياة ولكنها لم تكتف بهذا ، بل جعلتنا، بعد ذلك، نعقل ونفكر: «إنّ العقل الذي يصبح يوما بعد يوم أشد أجزاء الإنسان حيوية وإلحافا، لا يقتضي اليوم الارتواء التام بقدر ما يقتضي النشاط الدائم، إنما تنشأ متعة "الفهم"[20] من متعة التفكير، »وهذه تظل موجودة حتى حين تكون المعرفة محدودة، وحتى حين يشعر الفكر أنّه لن يستفيد هذه المعرفة التي لا نهاية لها ولا حد .

4.5 بوزانكيت :التأمل هو الخلق وأكثر الأنواع تحقيقا للخلق والإبداع هو الفنان

والواقع أنّ أي عمل فني إذا ما تعمقناه لرأيناه أعمق من الشيء الذي يمثله أو يرسمه أو ينحته، فالعملية هنا ليست محاكاة حرفية للطبيعة أو نقل مباشر حرفي عنها، وإنما العملية تتعلق بالشعور الذي يأخذ من الأشياء ظواهرها ويربط ما بينها ويعيد خلقها لكي تظهر في ثوب جديد وإطار مبتكر.

ما نقصده بالطبيعة هنا هي تلك التي نجد فيها الجمال الطبيعي، ونجد الأشياء الفنية في ثناياه، ويكون الإنسان فيها مركزاً للتمثيليات المختلفة للأشياء جميعها كما تظهر له، إنّ الطبيعة بالمعنى الجمالي وللأغراض الجمالية تعني: «ملاد من روح وصور الأشياء الخارجية التي يتفهمها الإدراك التخيلي بحرية ويعيد تشكيلها في إبداعات فنية لكي يشبع اهتمامات العقل والشعور» وهنا تبدو مناصرة بوزانكيت القوية للنظرية العقلية في الإبداع الفني.[21].

5.5 ليوناردو دافينشي:

لقد تنبه مفكر عصر النهضة ليوناردو دافينشي لأهمية الطبيعة رغم قوله «أنّ العبقريات تعمل قليلاً وتفكر كثيرًا ... وهي تعبر بأيديها عن كل ما حصلته وأدركته عقولها»، وبالرغم من ذكر ه لدور الفكر إلاّ أنّه إذا سئل من أين تدرك وتحصل العقول على ما تعبر عنه الأيدي؟ يجيب ليوناردو ذاته «لما كانت الطبيعة غنية بالمشاهد والأجسام، فأحر بالإنسان أن يلجأ إلى الطبيعة ذاتها بدلاً من الالتجاء إلى الذين أخذوا عنها»، ويقول في نص آخر «يجب أن تكون بين الفنان والطبيعة علاقة قرابة ومودة، يشاهدها، ويستمتع بها، ويحاكيها دون وسيط، ومن غير أن ينظر إليها، من خلال نظرات غيره من المصورين»، ويقول: «لا تسجل على لوحتك ما يخالف الطبيعة التي هي معلمك ومرشدك الأول»، ويقول أيضا: «إذا أردت أن تحصل على درجة مرموقة في الفنون فاعمل على دراسة المجسمات والأشكال في الطبيعة مبتدءا بدراسة تفاصيلها» ومشاهدة الطبيعة والاستماع إليها ومحاكاتها والالتجاء إليها لا يتم إلاّ بواسطة عين ترى وأذن

تسمع وأنف يشم ولسان يتذوق وجلد يلمس، أي لا يتم إلاّ بواسطة الحواس الخمسة للإنسان، إذن فالطبيعة يدركها العقل بواسطة الحواس، وللحواس دور رئيسي عند ليوناردو، وأنّ هذا الفكر المنبثق من الإحساسات يعطي إشارة البدء ليد المصور فيتم الإبداع الفني.[22]

6. تذوق الفن أم تذوق الطبيعة:

هناك وجهة نظر تقول أنّ الفن أكثر إرضاء وأهم في التجربة الجمالية من الطبيعة، وأننا حينما نتحدث عن الموضوعات الجمالية فإننا نعني بها عادة الأعمال الفنية التي ابتدعها الفنان لا موضوعات الطبيعة. ويرى أنصار هذا الرأي أنّ الفن بما أنه نشاط إبداعي يقوم به البشر بعكس الطبيعة، فإنه يكون من ثم أكثر أهمية من الناحية الاجتماعية من الطبيعة، بالإضافة إلى أنّ الأعمال الفنية غالبا ما تكون ثابتة باقية ومن السهل محاكاتها أو عمل نسخ منها، أي يمكن المشاركة فيها بصورة مختلفة، فنحن نستطيع أن نقرأ نفس الكتب، ونستمع إلى نفس التسجيلات، على حين أنّ موضوعات الطبيعة كالخلجان البصرية والتكوينات السحابية موضعية وعابرة ومؤقتة إلى حد كبير.

وجهة النظر الأخرى يرون أنّ الظواهر الجمالية الطبيعية أكثر إرضاءً وإشباعا من الفن. يقول جورج سانتيانا«إنّ حبي للجميل لم يجد إشباعه الأكبر في الفنون، فإذا كان الفن ينقلنا من حال إلى غيره، ويحرر عقولنا وقلوبنا، مما يجعلني أحمل له التقدير والاعتزاز، فإنّ الطبيعة تفعل ما هو أكثر من ذلك مرات ومرات، وإن كان هناك ما خلب لُبي، فهو الأماكن الجميلة، والعادات الجميلة، والنظم الجميلة، ومن هنا كان إعجابي باليونان وإنجلترا، واستمتاعي بأمريكا الفتية المرحة البارعة»[23]، ويقول كاريت: «لو أجبرنا على الاختيار القاسي بين الجمال الطبيعي والجمال الفني، وقدرنا الكنوز النفيسة في الموسيقى والشعر إلى آخر صداها، ففي اعتقادي أنّ اختيارنا ينبغي أن يكون للطبيعة».[24]

غير أنّ جيروم ستوانيتز يرى أنّ التذوق الإستطيقي للفن يكون أعظم قيمة من تذوق الطبيعة، من حيث أنّ الأول يتضمن "حدودا" أمّا الثاني فلا، فالفنان يصنع لعمله حدودا، فالكاتب والمدونة الموسيقية يبدآن وينتهيان عند حدود معينة، واللوحة لها إطارها المحدد، والتمثال والمبنى تحدهما سطوحهما الخارجية، أمّا الطبيعة فلا تضع حدودا لمناظرها الريفية وخلجانها أو تكويناتها السحابية بحيث ندرك أين يبدأ هذا المنظر أو ذلك وأين ينتهي، إنّ تلك الحدود لَهِيَ مما تنظم الموضوع الفني وتوحده ومن ثم تجعل تجربتنا الفنية محددة غير مشوهة، وفي مقابل ذلك يفتقر المنظر الطبيعي إلى تلك الحدود وبالتالي يكون مشوها غير محدد لا تستطيع العين أن تحيط به. [25]

فعلى الرغم من أنّ الطبيعة لا حدود قاطعة لظواهرها الجمالية إلاّ أنّ المتذوق الجمالي يفرض تلك الحدود وهو يشاهد تلك الظواهر، أي أنّ المشاهد هو الذي يحدد ويشكل المنظر الطبيعي على حسب قول سانتيانا، ولو كان لدى المرء إدراك ثاقب وخيال خصب لاستطاع أن ينشئ منظرا طبيعيا ذا قيمة جمالية كبرى، منظرا قد لا تقل قيمته، وربما زادت، عن كثير من اللوحات التي تصور مناظر طبيعية، لكن معظم الناس لا تتوافر لديهم بطبيعة الحال القدرة على القيام بهذا العمل، وهي القدرة التي يملكها الفنان، بدرجة ملحوظة، وربما أننا لا نستطيع أن نغير في مناظر الطبيعة، فأنّ قد تتضمن شوائب أو عناصر زائدة يمكن استبعادها في العمل الفني، كذلك يمكن الانتهاء إلى أنّ هذه الحجة لا تثبت سوى أنّ الأعمال الفنية في عمومها ذات قيمة أعظم، بفضل وحدتها في المناظر الطبيعية، [26] بالإضافة إلى ذلك أنه حتى لو أمكن وجود تنظيم شكلي محدد للظواهر الجمالية الطبيعية، فإنّ معظمنا لن تتاح له فرصة مشاهدته، لأنه لا يتصف بالدوام والبقاء، كما هو الحال في أغلبية الأعمال الفنية.

غير أنّ هناك وجهة نظر أخرى في هذا الموضوع وهي أن الطبيعة إنما تكسب قيمتها الإستطيقية العظمى بسبب هذا الافتقار إلى التحديد أو التنظيم الشكلي، فالمناظر

الضخمة ذات القوة الهائلة لها من الجمال والجلال ما لا يمكن لأحد أن ينكره، وهي تفر بطبيعتها من أي أحد أو قيد، والأفق اللامتناهي الذي يتبدَى لنا ونحن نرى المحيط وما يعلوه من سماء واسعة زرقاء هو منظر طبيعي فاتن وجليل ليس في قدرة أي عمل فني أن يتعامل معه، وهذا يعني أنّ الطبيعة إذا كانت قاصرة في جانب، فإنها تتفوق في جوانب أخرى.

7.خاتمة:

لاشك أن الطبيعة هي منبع الفن ومنشأه، والعمل الفني العيني المرئي واقعة مادية جزء لا يتجزأ من الطبيعة الماثلة أمامنا وبالتالي فالتكوين الطبيعي للعمل الفني يتضح اتجاهين :

الاتجاه الموضوعي: محاولة محاكاة الطبيعة، تعتبر هذه النظرة بدائية في تاريخ الجماليات باعتبار أن الفن مجرد نقل من الطبيعة وهذه الأخيرة تقتصر على الجمال وخلت من كل ما هو دميم.

التي عبر عنها أفلاطون وأرسطو عن محاكاة الطبيعة في الفن ، كما أول من دعا روسو إلى عبادة الطبيعة والذي انبثق عنه مذهب ديدرو ،ورينان، و رسكن وغيرهم، الذين صوروا الطبيعة تقدم للإنسان الأجمل والأكمل من الخطوط.

لكن ما ذهب إليه هؤلاء الفلاسفة إلى أن الفن مرآة الطبيعة كانت النتيجة هو ازدراء أعمال المصورين الذين يحاولون ابتداع مناظر من خيالهم وتركيب خطوط وألوان التي تروق لهم ولا حاجة للفنان أن يعبر على نفسيته.

الاتجاه الذاتي : المزج بين المحاكاة والتعبير وذهب رودان ، وتولستوي إلى النظرة إلى الأشياء الطبيعية نظرة فنية فيتسنى لهم الكشف ما في باطنها من جمال خفي الذي لا يراه المشاهد العادي وبالتالي تصبحون فنانون حقيقيون.

الاتجاه الثالث : الجمع بين الذات وموضوع تكوين الأحكام الجمالية فالجمال قائم على موضوعية كاملة، ولا يفسح المجال للتعبير عن الحكم الذات المتغيرة ويعني الحكم الجمالي السليم يعبر عن أذواق المشاهدين.

وهذا جانب يتفق فيه تذوق الفن مع تذوق الطبيعة وهو الانتباه والتفسير الانتقائي، فنحن نتنبه في الفن إلى ما نريد الانتباه إليه، من أعمال فنية متنوعة، كما نتنبه في الطبيعة إلى ظواهر جمالية مختلفة، ونحن نفسر هذا العمل الفني تفسيرا ينبع من داخلنا ويتفق مع تربيتنا، وأذواقنا وكذلك الأمر بالنسبة إلى الطبيعة.

فالفارق الأول بين الأعمال الفنية وبين الظواهر الطبيعية الجمالية، هو أنّ الأولى تتميز بوجود جهد إنساني واضح، هو جهد الفنان، بينما لا نجد ذلك في الثانية، وهذا القول يبدو صحيحا للسببين التاليين:

أولا نشعر بنوع من الألفة مع الشخص الذي قام بإبداع العمل الفني، وهو أمر نفتقر إليه فيما يتعلق بالظواهر الجمالية، فقد نشعر بالامتنان لجهد الفنان، أو للمعنى الذي أراد أن يوصله إليه، ولقدرته على تخطي العقبات.

ثانيا نشعر بالإعجاب ببراعة الفنان، وقدرته على السيطرة على مواد عمله الفني حتى تصبح أكثر نفاذا وأكثر تأثيرا.

ولكن ينبغي علينا الإدراك بأنّ الاهتمام بالفنان الذي أبدع العمل الفني لا يؤدي دائما إلى زيادة القيمة الجمالية للفن، بل ربما أدى ذلك إلى الانصراف عن الحياة مع جمال العمل الفني للغوص في حياة الفنان الخاصة باعتباره عينة لمدرسة فنية معينة.

كما يمكن نجد في الفن قيمة لا نجدها في الطبيعة، فقد تكون للعمل الفني قدرة تعبيرية عاطفية كبيرة، أو تأثيرا ثقافيا ممتازا، أو تعبيرا عن أماني المجتمع وقيمته، بيد أنه لا يمكن القول بأن الفن وحده هو الذي يملك مثل هذه القيم، وأنّ الطبيعة خلو منها، فنجد في الطبيعة ظواهر جمالية شديدة التأثير، عظيمة النفاذ، كما أنها قد تعبر في كثير من الأحيان عن جلال وعظمة الله في إبداعه.

فإنّ مسألة تفوق الفن على الطبيعة أو العكس هي مسألة معقدة ولا يمكن حسمها تماما، فهناك نواحي يكون الفن فيها أعظم تفوقا على الطبيعة، وهناك نواحي أخرى تكون الطبيعة أكثر تفوقا من الفن.

** *** ***

6. الهوامش:

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج04، دار صادر، ط03، بيروت، سنة1414هـ، ص358.

(2) قاسم محمد كفوجي، محمد يوسف نصار، نظريات فنية،جدارا لكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2008، صفحة 12.

(3) الأجاري: ضروب من جرية واحدتها إجْرِبًّا.

(4) بشير خلف،الفنون لغة الوجدان،الطبعة الأولى،دار الهدى ،عين ميلة،الجزائر، 2009، ص 2

(5) مثلا لفظ [طبيعة] المشتق من جذر الفعل (طبع) قد استعمل في سياقات القرآن في معنى الختم والمراد به وضع غشاوة أو إحكام السيد في آيات كثيرة منها: 155 سورة النساء ، سورة 9. ، 16. 108 سورة النحل ، 47. سورة محمد 16، 101 100سورة الأعراف ، 40. 10. سورة يونس 74، سورة التوبة 93،87، 35 سورة غافر. 3. سورة المنافقون ﴿ أولئك الذين طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾

(6) عبد القادر قنيني،ترجمته، الطبيعة ،الطبعة الأولى،المركز الثقافي العربي،المغرب البنان، 2006، صفحة 15.

(7) عبد القادر قنيني ، المرجع نفسه ، صفحة 16 .

(8) عبد القادر قنيني ، المرجع السابق ، صفحة 183 .

(9) خالد محمد السعود، مناهج التربية الفنية بين النظرية والبيداغوجية،جزء 1،طبعة الأولى،دار وائل للنشر،عمان، الأردن، 2010، ص 40- 41.

(10) أنظر الصورة رقم1 رسومات الفن البدائي بكهوف ألتميرا بإسبانيا

(11) إسماعيل شوقي، التصميم عناصره وأسسه في الفن التشكيلي،زهراء الشرق القاهرة،دار الكتب المصرية،ط2001،2،ص20

(12). إسماعيل شوقي، المرجع نفسه،ص34

(13) إسماعيل شوقي، المرجع السابق ،ص 35

(14) أنظر الصورة رقم2 و3 و4 حول التصميم واستلهامها من الطبيعة

(15) إسماعيل شوقي، المرجع السابق ،ص 40

(16)زهير صاحب، نجم ،عبد حيدر، و محمد بلاسم،دراسات في الفن والجمال،دار مجدلاوي،عمان،الاردن،ط1، 2006، ص 133.

(17) قاسم محمد كفوجي، محمد يوسف نصار،المرجع السابق،ص69 .

(18) علي عبد المعطي محمد ،الإبداع الفني وتذوق الجميلة،دار المعرفة الجامعية،القاهرة،،1985 ص 69

(19) علي عبد المعطي محمد ، المرجع نفسه، ص 72

(20) علي عبد المعطي محمد ، المرجع السابق، ص 75-76

(21) علي عبد المعطي محمد ، المرجع السابق، ص 79

(22) ليوناردو دافنشي Leonardo Da Venci أعظم شخصية بين فناني عصر النهضة، فيعد نموذجا لأناس عصر النهضة الذين يصفهم أنجلز بأنهم عمالقة في قوة التفكير والعاطفة والطبع والشمولية والمعرفة، وقد كان أديبا وشاعرًا وكاتبًا وناقدًا.

(23) جورج سنتيانا ، الإحساس بالجمال، ترجمته محمد مصطفى بدوي، مراجعته وتصدير زكي نجيب محمود، القاهرة ،ب ت،13،

(24) علي عبد المعطي، المرجع السابق ،ص 345- 346.

(25) جيروم ستولينتز، النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية، ترجمته فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة 22 ،1981 ،ص198 .

(26) علي عبد المعطي، المرجع السابق ،ص 348.